الفنانة الكبيرة فتحية الصغيرة وحكاياتها مع الفن والحياة والزمن

اختارت مشوار الفن وتخلقت في أحضانه منذ السادسة من العمر

مبرز أبيها كان حضنا لقامات شعرية وموسيقية

أبوبكر سالم بلفقيه انطلق من مبرز محمد علي فقيه، وغنت له (تبنا خلاص)

كتبت/ سلوى صنعاني

لشوقي أبيات مأثورة من شعره قالها ضمن ما قاله ومضى ليتركها في وجدان الناس ومنها « وطني ان شغلت بالخلد عنه ، نازعتني في الخلد إليه نفسي» تلك الكلمات تنطبق على حال فنانة اليمن الكبيرة فتحية الصغيرة وتترجم مافي أعماقها من وجد وشوق للوطن، ذلك الشوق الذي طاربها من وراء البحار قاطعة آلاف الأميال إلى حضن عدن.

الفنانة اليمنية الرقيقة كما عرفناها حملتها الأشواق المضنية لليمن التي يعاني فيها كثير من أبنائه النازحين إلى الخارج لزيارة عدن وقضاء إجازة العيد بين أحضان المدينة الساحرة وبين أحبتها وأهلها والأصدقاء.

وهي المعروفة وليست بحاجة إلى تعريف بما قدمته من أغان وطرب شنف الآذان وأثلج الوجدان ، وأثرت مكاتبنا الصوتية والمرئية بأعمالها الإبداعية والفنية.

فتحية التي كسرت طوق العادات والتقاليد في مجتمع محافظ كمجتمعنا اليمني ومعها عدد من الفنانات خرجن إلى حقل الفن المقتصر آنذاك على الذكورة.

وكن المتحديات الصامدات اللاتي اخترن درباً مليئاً بالأشواك والعقبات الكأداء.. ليصنعن نصراً مأثوراً وهن الرائدات، بيد أن الفنانة فتحية الصغيرة استمرت في عطاءاتها وتحديات الواقع المر في وقت أفلت فيه نجومية معظم من ركبن معها موجات الصعب.. فاندثرت بعض الأصوات بينما استمرت فتاة اليمن في مشوارها الفني رغم عثرات الحياة الوعرة التي تواجه المرأة في كافة المجالات.

المشوار الفني الزاخر للفنانة فتحية الصغيرة الذي بدأته في مطلع الخمسينات من القرن الماضي تنشره صحيفة (14أكتوبر) على صدرها لتوثيق هذه التجربة الفنية العظيمة والجميلة لامرأة ملأت الآفاق الفنية ضجيجاً وكانت زوجة لفنان يشكل قامة شامخة للفن اليمني أحمد بن أحمد قاسم وأما لأربعة بنات منه تناسلت الأسرة لتعطينا أحفاداً لسلالة فنية تمتد جذورها في القدم.

ولأن الحديث ذي شجون عن ذلك المشوار الطويل كان لابد لنا من الخوض في البدايات :

كيف كانت البداية؟

البداية لها حكايتها مع طفلة بلغت من العمر السادسة، مكنتها اسماعها الفنية كموهبة من سماع الكثير من الأغاني، فهي بخلاف قريناتها في تلك السن المبكرة من العمر تخلقت في أجواء أسرية فنية كان عمادها الفنانان المطربان والمبدعان حسن فقيه وحسين فقيه ومعهما جملة من أهل الفن.

من حارة القاضي بكريتر ومن الشارع (4) قسم سي أتت فتحية الصغيرة كان مبرز أبيها أسفل منزله الكبير وكان الأب وهو قبطان أعالي البحار شغوفاً بالفن والعزف على العود وجمع الاسطوانات بمختلف الأغاني المصرية والهندية والكويتية كل ذلك لفت انتباه وسماع الصغيرة فكانت تحفظها وترددها.

لم تتشرب الفن من وعاء أسرتها بل ومن جارها الذي يقطن بجانبهم محمد الجيزاني الذي تصدح أغاني الاسطوانات من منزله كان أيضاً منهلاً يروي عروقها وشراييها مثل أغاني الأستاذ الراحل محمد عبدالوهاب وفريد الأطرش وكارم محمود وأم كلثوم وعبده السروجي ونجاة الصغيرة وغيرهم.

مبرز أبيها المرحوم الشيخ محمد فقيه عبدالرحيم كان آنذاك الثكنة الفنية التي ضمت بين حناياها أشهر الفنانين والشعراء والملحنين من أهل الفن ومنها خرجت أروع الأغاني العدنية مثل (ساهر ياليل وحدي) للشاعر محمد عبده سعد، و«ظلموني حبيبي» للشاعر أحمد ناجي و(ليه تباني أنساه) لعبده محمد سلام وجميعها من الحان حسن فقيه ، غناء محمد صالح الهمشري ، وهناك إلى جانب الملحنين حسن وحسين فقيه وهما الأخوان الكبيران لفتحيه الصغيرة كان الفنان الكبير أبوبكر سالم بلفقيه الذي انطلق من تلك الثكنة الفنية والأستاذ يحيى مكي وأنور أحمد قاسم العازف الكبير على آلة العود والفنان عبدالرحمن باجنيد والفنان محمد سعد عبدالله ومعهم أيضاً عازف الإيقاع عبدالكريم القعطبي وجعفر بورلا عازف الرق وسالم عبدالله سالم عازف الكمان وعدد من الشعراء مثل عبده محمد سلام وابوبكر البغدادي وعلي أمان.

ومن كلمات الشاعر علي أمان والحان يحيى مكي خرجت أغنية (ياريت ما كان اللي كان) غناء محمد صالح الهمشري وأغنية «قال لي الزين شفتك فين» الحان المكي وغناء أحمد ناجي قاسم، وكانت الصغيرة فتحية معهم.

إذن لاعجب أن تتخلق في طفلة السادسة عمراً روح الفن وهي محاطة بجو فني ثري في نطاق الأسرة الفنية كانت تردد عقب استماعها تلك الأغاني التي تحفظها وقد تميز بإذن سماعيه موسيقية وحس فني متقد وذاكرة قوية مكنتها من حفظ الألحان والكلمات وتأديتها بصورة لفتت انتباه من حولها.

كانت فتحية الصغيرة تردد أغاني فايزه أحمد « من باب للشباك» و« أنا قلبي لك ميال» و«سلوا قلبي» لام كلثوم مما هذب مسامعها على الإيقاعات والمقامات الموسيقية وتمضى الفنانة فتحية الصغيرة مسترسلة في حديث الذكريات عن بداياتها.. وأنا استمع إليها بشغف وأسجل .

ذات يوم في وقت الظهيرة والأسرة على مائدة الغذاء .. كانت تغني «أسهروا نشغل أنا» أعقبت بغناء أغنية «مظلومة ياناس» لسعاد محمد وإخوتها يستمعون إليها كان أداءها قد أثار حماس الأسرة وخصوصاً أخويها حسن وحسين فقيه.

وعقب وجبة الطعام طاروا بها إلى منزل الأستاذ علوي السقاف الذي كان ينقب عن الأصوات والمواهب الفنية ويقدمها للجمهور من خلال برامجه ركن الهواة وبرامج الأطفال في إذاعة عدن.

وفي منزله بحارة الملك سليمان

أول إطلاله على جمهور المستمعين كانت عبر الأستاذ علوي السقاف وبرامجه المشهورة بركن الهواة وبرامج الأطفال

بداياتها وانطلاقتها كانت على أيدي أخويها حسين وحسن فقيه المبدعان المعروفان

غنت مع نخبة من زميلاتها أغنية الترحيب بالملكة اليزابيت بلغة لايجدن مفرداتها ولكنهن أجدن غناءها

بكريتر كانت الصغيرة تشدو بصوتها أمامه، الذي اجبره على الإجازة الفورية لإظهار المعجزة الصغيرة وتقديمها إلى الجمهور.

وكانت أول أغنية غنتها في إطلالتها الأولى على المستمعين من اللون اللحجي ولا غرابة في أن تترك كل الأغاني العدنية والمصرية التي الفتها في بيئتها لتختار أغنية «ياربيب الحب تربية الغرام» لسبب واحد هو إعجاب الناس بهذه الأغنية التي ظهرت في تلك الآونة بصوت الفنان محمد صالح حمدون حتى الأداء كان لحجياً فقد نطقت «الغرام» بالقرام.

كان ذلك عبر برنامج ركن الهواة (ثم أعقبتها بعد ست سنوات بأغنية من اللون اللحجي وهي « ألا لما متى يبعد وهوه مني قريب » للأستاذ عبدالله هادي سبيت لحناً وكلمات الشاعر محسن صالح مهدي على خشبة مسرح التنس العدني) وتتذكر فتحية وجود الفنان حمودي عطيري في تلك الليلة.

ونعود على ذي بدء فبعد إطلالتها الأولى بالأغنية اللحجية استمرت تغني في برامج الأطفال ومعها جملة من الشعراء والملحنين يقفون خلفها وهي تؤدي أغاني الصغار عبر برامج الأطفال ومن أشهر أغانيها في تلك الفترة.

«أشتي ألعب» كلمات يوسف مهيوب سلطان والحان حسن فقيه وأغنية «الزماطة» من الحان حسن فقيه أيضاً وكلمات يوسف مهيوب سلطان .. وأغنية «يا بنات اليوم هيا قد مضى عهد الكسل» لحن حسن فقيه وكلمات يوسف مهيوب سلطان .. قدمت جملة معها من الأغاني كانت أشهرها «تفاحة كانت هنا» من كلمات الشاعر أحمد شريف الرفاعي والحان حسين فقيه وأغنية «عيد ميلادك أجمل عيد» الحان أبوبكر فارع و«كتكوته العكروته» الحان أحمد بن أحمد قاسم وكلمات لطفي جعفر أمان .. كما مثلت عدداً من المسرحيات منها «تاجر البندقية» ومعظم ممثليها كانوا من المذيعين ومنهم علوي السقاف وأبوبكر العطاس ومحمد مدي، حيث قامت بدور «بورشه».

وللمدرسة بصماتها

إذا كانت البيئة الأسرية الفنية قد شكلت تلك الموهبة الفنية الفذة، لا نغفل بهذا عن بصمات المدرسة عليها فالفنانة / فتحية الصغيرة قد تأثرت بالجو الدراسي والنشاط اللاصفي في مدرسة البنات التي التحقت بها في نفس العام الذي تكشفت فيه إبداعاتها .. ومن حديثها عن المدرسة نلتمس آثارها فيها كإنسانة وفنانة.

فقد التحقت بمدرسة البنات الابتدائية (مدرسة الميدان) بالقرب من السجن القديم في كريتر وتتذكر زميلاتها ومنهن عايدة علي سعيد اليافعي وهي من القيادات النسائية المعروفة وسلوى صعيدي، ونبيهة شواله وعنان باشراحيل.

ومن المواقف الطريفة لها أنها تريد أن تغش في امتحانات السنة الرابعة وهي وزميلتها عنان فكن يرددن أبيات من أغنية «أنا والعذاب وهواك التي تبدأ فتحية وترد عليها عنان ناظرة في أسئلة الامتحان :عايشين لبعضينا» وآخرتها إيه وياك وعادة ما ينتهي الموقف بتهزئة المدرسة لهاتين المشاغبتين.

وكان لتلاوتها طراوة على السامعين عندما أقيم حفل في المدرسة لأولياء الأمور وكان يقام سنوياً وتنظمه المدرسة تقدمت فتحية وتلت من سورة البقرة بسم الله الرحمن الرحيم «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا» نال أعجاب السامعين لها ولصوتها وأداءها الجميل.

وتحكي عن مدرستها الأستاذة / فوزية على أحمد غانم وهي خريجة السودان ثم عملت مذيعة لاحقاً، المدرسة المذكورة اختارت مجموعة من الفتيات لأداء أغان من اللون السوداني، وكان أداؤه صعباً ولم تكن / فتحية ضمن المجمّوعة .. حفظت الأغنية وراحت ترددها بإتقان – من الصفوف الخلفية مما لفت الأستاذة / فوزية إليها واختارتها لتلقنها أغنيتين سودانيتين هي : «يا لوزة القطن تفتحي هيا» و «أهلاً بوفد الأمهات».

وضمن ذكرياتها عن المدرسة اختيارهم لها ضمن المجموعة المرحبة بالملكة اليزابيت في زيارتها لمدينة عدن وكانت الأستاذة / نعمة عبدالحبيب تلقن المجموعة كلمات الأغنية باللغة الانجليزية تلك الأستاذة التي كانت تجيد العزف على آلة البيانو قد أعجبها أداء فتحية وشجعتها على الغناء باللغة التي لا تعرف وزميلاتها أي مفردة فيها.

الأغنية العاطفية

قبل التطرق إلى الأغنية العاطفية نستشف من البدايات أن الموهبة الصغيرة قد تكشفت على أيدي أخويها حسن وحسين فقيه وإنها قد تتلمذت في مدرستهما وفي أحضانهما .. سألتها هل تتذكرين بعض المشاركين آنذاك في الحفلات، فأجابتني بضحكتها الناعمة «كنت صغيرة أنام في الطريق عند العودة إلى البيت» كيف لي أن أتذكر.

وللأغنية العاطفية مساحة في الصغر، فإذا كانت تحفظ لأم كلثوم وفائزة أحمد ونجاة الصغيرة وتغني بصورة سليمة أغانيهن فكيف لا يكون لها نصيب من الغناء العاطفي.

وفعلاً كانت كذلك فقد بدأت أول تسجيل لتلك الأغاني عام 58م أي عندما بلغت الثانية عشر وكانت أغنية «ليه تباني أنساك وقلبي مبتلي» من كلمات عبده محمد سلام والحان الفنان الكبير حسين فقيه ومن الحان حسن فقيه وكلمات الشاعر علي أمان «يا غايب وكم باتغيب» و «هويته يا أماه» للشاعر محمد سيف كبشي والحان حسين فقيه و «من لي غيرك» و «أحبك مهما تتكبر» من كلمات الشاعر عبدالله عبدالكريم والحان حسن فقيه، ولم تغن أو تنحصر في دائرة الحان شقيقها بل غنت «أرض الحبايب» من كلمات الشاعر أبوبكر البغدادي والحان الفنان عبدالرحمن باجنيد، وأغنية «أبو قلب حجر» لأحمد شريف الرفاعي والحان الفنان أحمد بن أحمد قاسم.

كان كفيل بذلك الصوت الجميل أن يجتذب شعراء وملحنين ومطربين كبار ليقدموا له النفيس من أعمالهم ومن اللون العاطفي غنت «تبنى خلاص تبنى من حبكم تبنى» و «حائر وحبك محيرني» من الحان الفنان أبوبكر سالم بلفقيه وكذلك «أسمر وخفه» من كلمات الفنان الكبير الأستاذ محمد سعد عبدالله والحان يوسف أحمد سالم.

رحلتنا مع المشوار الفني للفنانة اليمنية الكبيرة جعلنا نعرج على أعمال هامات فنية كبيرة رافقتها المشوار وتفاصيل مليئة بالشجو والحزن والفرح والذكريات الصاخبة .. نجدها في الحلقة الثانية بعد أن وجدنا أن الفنانة قد تشكلت فيها قبل الأنثى!!!

الفنان والملحن حسن فقيه

الفنانة فتحية الصغيرة في حضن أخيها الكبير قاسم فقيه وعمرها ستة أشهر

فتحية وعمرها ثمان سنوات واقفة على خشبة مسرح التنس العدني وخلفها عازف العود السيد محمد السقاف